اختصار
وتهذيب الأسباب
والأعمال التي يضاعف بها الثواب

خالد بن محمد بن عبدالعزيز اليحيا

شبكة الألوكة
www.alukah.net

اخْتِصارٌ وتَهذِيبٌ
الأَسْباب والأَعمَال التي يُضاعفُ بِها الثَّواب

قام باختصاره وتهذيبه
خالد بن محمد بن عبد العزيز اليحيا

الإبرازة الأولى
جمادى الآخرة/١٤٤٢

بسم لله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد كتب الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله جوابًا مختصرًا مفيدًا عن الأسباب والأعمال التي يضاعف ثوابها[1]، مشيرًا إلى نصوص الوحيين ومقاصد الشريعة ومصالحها، وشرحَ هذا الجواب فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد في كتابٍ مطبوعٍ، وفي هذا المرقوم اختصارٌ وتهذيب للفتوى ولشرحها، مع يسيرٍ من الزيادات على ما ذكره الشارح، كذكر أدلةٍ لتلك الأسباب، ونقولٍ عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجبٍ، وغيرهم، وغالب النقل يكون باختصارٍ وتصرفٍ لا يخل بالمقصود؛ مراعاةً للإيجاز.

وإنه ليتأكد في حق المؤمن أن يُعنى بهذه الأسباب والأعمال، فهي- بحقٍّ- ميدان فسيح للمرابحة والتجارة التي لا تبور.

وأسأل الله الكريم البر الرحيم أن يجزي الشيخين خير الجزاء، وأن يضاعف لهما المثوبة، وأن يجعل هذا العمل خالصًا، نافعًا، مباركًا، إن ربي سميع الدعاء[2].

هذا وقد بدأ العلامة السعدي جوابه ببيان أمرٍ وتقريره، وهو أن مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها، قد تفضَّل الله به على عباده المؤمنين في كل عملٍ صالحٍ، كما قال تعالى: {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}.

وأما المضاعفة بزيادةٍ على ذلك- وهو المقصود من الفتوى- فيعود لأمورٍ:

منها: تحقيق الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ؛ بأن يكون العمل من الأعمال المشروعة، ويقصدَ العبدُ وجهَ الله وثوابَه، ويحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله، ويكون عمله صادرًا عن إيمانٍ بالله ورسوله ﷺ، قال ابن القيم: لا يكون العبد متحققًا بـ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي (٣٥/٧).

(٢)كان البدء بكتابتها في ١٤٤١/١١/٢٨

والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}(١).

وقال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} أي: إنما يتقبلُ عملَ من اتَّقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه، على موافقة أمره، وهذا إنما يحصلُ بالعلم(٢).

وقال النبي ﷺ: (من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه).

وقال ﷺ: (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه).

وقال ﷺ: (ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه)(٣).

وقال ﷺ: (من اتبع جنازة مسلمٍ، إيمانًا واحتسابًا، وكان معه حتى يصَّلى عليها ويُفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراطٍ مثل أحدٍ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراطٍ)(٤).

وقال ﷺ: (من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شِبعه وريَّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)(٥).

يلاحظ أن قوله: (إيمانًا واحتسابًا) قد تكرر في أكثر من حديثٍ، قال العراقي: قوله: (إيمانًا) أي: تصديقًا بأنه حقٌّ وطاعةٌ، وقوله: (واحتسابًا) أي: طلبًا لمرضاة الله تعالى وثوابه لا بقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص، والاحتسابُ من الحَسْب وهو العَدُّ، كالاعتداد مِن العدِّ، وإنما قيل لمن ينوي بعمله وجه الله: احتسبه؛ لأن له حينئذٍ أن يعتدَّ عمله، فجُعل في حالِ مباشرة الفعل كأنه معتدٌّ به(٦).

وقال ابن بطالٍ: يريد تصديقًا بفرضه وبالثواب من الله تعالى، على صيامه وقيامه، وقوله: (احتسابًا) يريد بذلك يحتسب الثواب على الله، وينوي بصيامه وجه الله، وهذا الحديث دليلٌ بيّنٌ أن الأعمال الصالحة لا تزكو ولا تُتَقبَّل إلا مع الاحتساب وصدق النيات(٧).

وقال ابن القيم: كلُّ عملٍ لابدَّ له من مبدأٍ وغايةٍ، فلا يكون العملُ طاعةً وقُربةً حتى يكون مصدرُه عن الإيمان، فيكون الباعثُ عليه هو الإيمان المحض، لا العادةُ ولا الهوى ولا طلبُ

---

(١)مدارج السالكين (١/ ١٠٤).

(٢)قاله ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٩).

(٣)أخرجه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤)أخرجه البخاري (٤٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥)أخرجه البخاري (٢٨٥٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦)طرح التثريب في شرح التقريب (٤/ ١٦١).

(٧)شرح صحيح البخاري (٤/ ٢١).

المَحْمَدَةِ والجاهِ وغير ذلك، بل لابدَّ أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثوابَ الله تعالى، وابتغاءَ مرضاتِه، وهو الاحتساب، ولهذا كثيرًا ما يُقْرَن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: (مَن صامَ رمضان إيمانًا واحتسابًا)، ونظائره[1].

والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجُحُ بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجهٍ يكملُ فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر؛ كما قال النبي ﷺ: (يُصاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلًا، كل سجلٍّ مدَّ البصر، ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أَظَلَمَتْكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، ثم يقول: ألك عذر، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسناتٍ، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بطاقة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، قال: فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات. فيقول: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفةٍ والبطاقة في كفةٍ، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة)[2]. فهذا حال من قالها بإخلاصٍ وصدقٍ، كما قالها هذا الشخص. وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة.

وقال النبي ﷺ: (بينما رجل يمشي بطريقٍ اشتد عليه فيها العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له)[3]، وفي لفظٍ: (إن امرأة بغيًّا رأت كلبًا في يوم حارٍّ يطيف ببئرٍ قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له مُوقَها، فسقته به، فغُفر لها)[4]، وقال رسول الله ﷺ: (بينما رجل يمشي في طريقٍ وجد غصن شوكٍ على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له)[5].

---

(١)الرسالة التبوكية (١/ ٩).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠) عن عبد الله بن عمرو ﷺ، وصححه ابن حبان (٢٢٥) والحاكم (٩) والألباني. صحيح الجامع (٢/ ١٣٤٥).

(٣)أخرجه البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤)أخرجه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥)أخرجه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤) عن أبي هريرة ﷺ.

فتلك سقت الكلب بإيمانٍ خالصٍ كان في قلبها فغُفر لها، وإلا فليس كل بَغِيٍّ سقتْ كلبًا يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمانٍ خالصٍ، وإخلاصٍ قائمٍ بقلبه، فغُفر له بذلك؛ فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كل من نحَّى غصن شوكٍ عن الطريق يُغفُر له.

وقال الله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المُهراق ولا اللحم المأكول، والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب.

وبهذا يُعرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قَدْرُها ويصغر بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله.

وقد قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}.

قالت عائشة للنبي ﷺ: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[1].

وقال النبي ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ، ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه)[2]، وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحدًا أن يحصل له مثله ممن بعدهم.

وهذا مما يَعرف بعضَه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

ومما يعرف به أن أبا بكرٍ رضي الله عنه لن يكون أحدٌ مثله؛ فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عياشٍ: ما سبقهم أبو بكرٍ بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ، ولكن بشيءٍ وَقَرَ في قلبه.

وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول ﷺ، مؤمنين به مجاهدين معه، إيمانٌ ويقين لم يَشركهم فيه من بعدهم. والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة،

---

(١)أخرجه الترمذي (٣١٧٥).

(٢)أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بل لحقائقها التي في القلوب. والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلًا عظيمًا(١).

وقال ابن القيم: العمل اليسير الموافق لمرضاة الرب وسنة رسوله ﷺ أحبُّ إلى الله تعالى من العمل الكثير إذا خلا عن ذلك أو عن بعضه، ولهذا قال الله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} وقال: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} وقال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} فهو سبحانه وتعالى إنما خلق السماوات والأرض والموت والحياة وزيَّن الأرض بما عليها؛ ليبلو عبادَه أيهم أحسن عملًا لا أكثر عملًا.

والعمل الأحسن: هو الأخلص والأصوب، وهو الموافق لمرضاته ومحبته دون الأكثر الخالي من ذلك، فهو سبحانه وتعالى يحب أن يُتَعبد له بالأرضى له وإن كان قليلًا، دون الأكثر الذي لا يُرضيه والأكثر الذي غيره أرضى له منه، ولهذا يكون العملان في الصورة واحدًا وبينهما في الفضل- بل بين قليل أحدهما وكثير الآخر في الفضل- أعظم مما بين السماء والأرض.

وهذا الفضل يكون بحسب رضا الرب سبحانه بالعمل وقبولِه له ومحبتِه له وفرحِه به سبحانه وتعالى، كما يفرح بتوبة التائب أعظم فرحٍ، ولا ريب أن تلك التوبة الصادقة أفضل وأحب إلى الله تعالى من أعمال كثيرٍ من التطوعات وإن زادت في الكثرة على التوبة.

ولهذا كان القبول مختلفًا ومتفاوتا بحسب رضا الرب سبحانه بالعمل، فقبولٌ يوجب رضا الله سبحانه وتعالى بالعمل، ومباهاةَ الملائكة به، وتقريبَ عبدِه منه، وقبولٌ: يترتب عليه كثرة الثواب والعطاء فقط.

كمن يتصدق بألف دينارٍ من جملة ماله- مثلًا- بحيث لم يكْتَرِثْ بها، والألفُ لم تُنقصه نقصًا يتأثر به، بل هي في بيته بمنزلة حصًى لقيه في داره أخرج منه هذا المقدار، إما ليتخلص من همِّه وحفظه، وإما ليجازَى عليه بمثله أو غير ذلك. وآخر عنده رغيف واحد هو قُوتُه لا يملك غيرَه، فآثر به على نفسه مَن هو أحوج منه إليه محبةً لله وتقربًا إليه وتوددًا ورغبةً في مرضاته وإيثارًا على نفسه.

إلى أن قال رحمه الله: والأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال وقصدِ وجه المعبود وحده دون شيءٍ من الحظوظ سواه، حتى لتكون صورة

(١)منهاج السنة (٦/ ٢١٨).

العمَلَين واحدةً وبينهما في الفضل ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتتفاضل أيضًا بتجريد المتابعة فبين العَمَلَين من الفضل بحسب ما يتفاضلان به في المتابعة، فتتفاضل الأعمال بحسب تجريد الإخلاص والمتابعة تفاضلًا لا يحصيه إلا الله تعالى[1].

ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص: تركُ ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصًا من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غير الإخلاصِ، وقصةُ أصحاب الغار شاهدٌ بذلك.

فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: (بينما ثلاثة نفرٍ يمشون، أخذهم المطر، فأووا إلى غارٍ في جبلٍ، فانحطتْ على فَمِ غارِهم صخرةٌ من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا أعمالًا عملتموها صالحةً لله، فادعوا الله بها؛ لعله يفرِّجها عنكم، قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رُحت عليهم حلبتُ، فبدأت بوالديَّ أسقيهما قبل بَنيَّ، وإني استأخرت ذات يومٍ، فلم آتِ حتى أمسيت، فوجدتهما ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أسقي الصبية، والصبية يَتضاغَون عند قدمي حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلته ابتغاء وجهك، فافْرُج لنا فرجةً نرى منها السماء، ففرج الله، فرأوا السماء، وقال الآخر: اللهم إنها كانت لي بنت عمٍّ أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت منها، فأبتْ عليَّ حتى أتيتها بمائة دينارٍ، فبَغَيْتُ حتى جمعتها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمتُ، فإن كنت تعلم أني فعلته ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجةً، فَفَرَجَ، وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجيرًا بفَرَق أرزٍّ، فلما قضى عمله، قال: أعطني حقي، فعرضت عليه، فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله، فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وَرُعَاتِهَا، فخذ، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فخذ، فأخذه، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فَافْرُجْ ما بقي، ففرج الله) أخرجاه[2].

(١)المنار المنيف (ص٣٠-٣٣).

(٢)صحيح البخاري (٢٣٣٣) صحيح مسلم (٢٧٤٣).

وترك المحرم لأجل الله لاشك أنه مما يثاب عليه المسلم؛ لقول رسول الله ﷺ: (يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئةً، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة)[1].

وحديث أصحاب الغار دالٌ على أن التروك داخلةٌ في الإخلاص، وأنها تسمى أفعالًا، ولا شك أن الناس يتفاوتون في قوة الإخلاص.

*ومن أسباب المضاعفة، وهو أصل وأساس لما تقدم: صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله وصفاته؛ لأن ذلك يقود إلى إحسان العمل، وتمام المراقبة، وكمال التعبد لله بمقتضى أسمائه وصفاته.

قال النبي ﷺ عن الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2]، ومن أعظم ما يعين على هذا المقام معرفة أسماء الله وصفاته.

*ومن أسباب المضاعفة: قوة إرادة العبد، ورغبته في الخير؛ لأنه كلما قويت إرادته ورغبته في الخير اشتد شوقه إلى العمل، وعَلَتْ هِمَّتُه في إيقاعه على أحسن الوجوه، وقوي رجاؤه، وحسُن ظنه بالله تعالى، فلذا كان ذلك سببًا في المضاعفة.

ولهذا كان أهل السنة والجماعة المحضة، وأهلُ العلم الكامل المفصَّل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله= تضاعف أعمالهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلها، ولا قريب منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة. وكان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم، قعدت بهم عقائدهم.

ووجه الاعتبار: أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون. ومعلوم الفرق بين من يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالًا متأولًا.

*ومن أسباب مضاعفة العمل: أن يكون من الأعمال التي نفعُها للإسلام والمسلمين له أثرٌ ونفع كبير، ولذلك أمثلة:

---

(١)أخرجه البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢)أخرجه مسلم (٨) عن ابن عمر ﷺ.

أحدها: الجهاد في سبيل الله: الجهاد البدني، والمالي، والقولي، ومجادلة المنحرفين؛ كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعفٍ.

قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

قال ابن القيم: لما كان الجهاد ذروةَ سنام الإسلام وقبتَه، ومنازلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسِّنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا. وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا* فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}، فهذه سورة مكية أُمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواصِّ الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا[1].

***الثاني من الأعمال التي نفعُها للإسلام والمسلمين له أثرٌ كبير**: سلوك طرق التعلّم والتعليم، فإنه من أعظم الجهاد؛ والاشتغال بذلك- لمن صحت نيته- لا يماثله عمل من الأعمال؛ لِما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، ولِما فيه الخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه.

ومما يدل على أن سلوك طرق العلم من الجهاد قولُه تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

قال ابن القيم: هذا ترغيبٌ في التفقُّه في الدِّين، وتعلُّمه، وتعليمه؛ وأنَّ ذلك يعدلُ الجهاد، بل ربما يكونُ أفضلَ منه[2].

---

(١)زاد المعاد (٣/ ٥) وانظر: منهاج السنة (٨/ ٨٦).

(٢)مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٢).

وقال أيضًا: هذه الآية قد اشتملتْ على بيان حكمِ النَّافرين والقاعدينَ، وعلى بيانِ اشتِراكِهم في الجهادِ والعلمِ، فالنَّافرونَ أهلُ الجهاد، والقاعدونَ أهلُ التَّفَقُّهِ، والدِّينُ إنما يتمُّ بالجهاد والعلم، فإذا اشتغلت طَائفةٌ بالجهادِ وطائفةٌ بالتَّفَقُّهِ في الدِّين، ثم يُعَلِّم أهلُ الفقهِ المجاهدينَ إذا رجعوا إليهم، حصلتِ المصلحةُ بالعلمِ والجهادِ[١].اهـ.

ومما يدل على أن سلوك طرق العلم من الجهاد ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)[٢]، قال ابن القيم: وإنما جُعِلَ طلبُ العلم من سبيل الله؛ لأنَّ به قِوامَ الإسلام، كما أنَّ قِوامَه بالجهاد، فقِوامُ الدِّين بالعلم والجهاد. ولهذا كان الجهادُ نوعين: جهادٌ باليد والسِّنان، وهذا المشاركُ فيه كثير، وجهادٌ بالحجَّة والبيان، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادَين؛ لعظم منفعته، وشدَّة مؤنته، وكثرة أعدائه... فسبيلُ الله هي الجهادُ وطلبُ العلم ودعوةُ الخلق به إلى الله[٣].

وقال أيضًا في بيان فضل العلم: درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأُمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علَّم غيره شيئًا من ذلك كان لهم مثل أجره ما دام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالبٍ: (لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعَم)[٤].

وصح عنه ﷺ أنه قال: (من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء)[٥].

وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له)[٦].

وصح عنه ﷺ أنه قال: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[٧].

---

(١)بدائع الفوائد (٤/ ١٦٣٦).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) وقال: هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه. وقال العُقيلي في الضعفاء (٢/ ١٧): فيه خالد بن يزيد اللؤلؤي لا يتابع على كثيرٍ من حديثه، وفي فضل الخروج في طلب العلم أحاديث أسانيدها مختلفة، بعضها أصلح من بعضٍ، فيها أحاديث جيدة الإسناد، عن صفوان بن عسَّالٍ، وأبي الدرداء، وغيرهما.

(٣)مفتاح دار السعادة (١/ ١٩١).

(٤)أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد ﷺ.

(٥)أخرجه مسلم (١٠١٧) عن جريرٍ ﷺ.

(٦)أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧)أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية ﷺ.

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات، ومَن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ)[1].

وعنه ﷺ أنه قال: (نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها، فربَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه)[2].

والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا. وقد ذكرنا مائتي دليلٍ على فضل العلم وأهله في كتابٍ مفردٍ، فيالَها من مرتبةٍ ما أعلاها، ومنقبةٍ ما أجلها وأسناها، أن يكون المرءُ في حياته مشغولًا ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقةً وأوصالًا متفرقةً، وصحف حسناته متزايدةٌ يُملى فيها الحسنات كل وقتٍ، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك- والله- المكارم والغنائم، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وحقيقٌ بمرتبةٍ هذا شأنها أن تُنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات، فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خيرٍ أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماءَ في ملكوت السماءِ كما قال بعض السلف: من عَلِمَ وعمل وعلَّم، فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماء[3]. انتهى كلامه.

ونقل النووي في مقدمة المجموع نقولًا عن السلف في فضل العلم، فقال: وعن سفيان الثوري والشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم، وعن أحمد بن حنبل، وقيل له: أي شيء أحب إليك، أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعًا؟ قال: فنسخك تعلَّمُ بها أمر دينك فهو أحب. وعن مكحولٍ: ما عُبد الله بأفضل من الفقه. وعن الزهري ما عُبد اللهُ بمثل الفقه. وعن

---

(١)أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وصححه ابن حبان (٨٨) وقال ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٦٠): «له شواهد يتقوى بها ... وشاهده في القرآن قوله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا}» وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٤٥٩): «صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا قال شيخنا: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلا»، قال الشيخ صالح العصيمي: «إسناده حسن، وهو أجمع حديث في فضل العلم وشرف أهله». ولابن رجب شرح له. قال ابن القيم: «فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله؛ فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه، حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما» مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٢).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٦٥٨) وابن ماجه (٢٣٢) عن ابن مسعودٍ ﷺ، وصححه ابن حبان (٦٦) وابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ٣٦٤).

(٣)طريق الهجرتين (ص٣٥٣).

إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد، فالعلماء دلُّوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأهل الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل. وعن سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله تعالى منزلةً من كان بين الله وعباده وهم الرسل والعلماء. وعن سهل التستري: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء فاعرفوا لهم ذلك.

ثم قال النووي: فهذه أحرفٌ من أطراف ما جاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة... والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن.

ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافلُ المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحِّحٌ، فغيره من العبادات مفتقرٌ إليه ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتدٍ به مقلدٌ له في عبادته وغيرها، واجبٌ عليه طاعته ولا ينعكس، ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه والنوافل تنقطع بموت صاحبها[1]. انتهى كلامه.

ومما يُذكَّر به أن كل من أعان على طلب العلم ونشره له نصيب من سلوك هذا الطريق؛ لقول النبي ﷺ: (من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله)[2]، وذلك مثل بذل النفقات التي تحتاجها الدروس والبرامج العلمية، والدلالة عليها، وكذلك تنسيقها ونقلها عبر وسائل الإعلام المختلفة، ومعونة طلاب العلم بما يحتاجونه في تعلمهم.

الثالث من الأعمال التي نفعُها للإسلام والمسلمين له أثرٌ كبير: المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها ويتسلسل إحسانها.

قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}.

قال الشيخ السعدي: قولُه: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، {وَآثَارَهُمْ} وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خيرٍ عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علمٍ أودعه عند المتعلمين، أو في كتبٍ يُنتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل

(١)المجموع شرح المهذب (١/ ٢١).

(٢)أخرجه مسلم (١٨٩٣) عن أبي مسعودٍ الأنصاري ﷺ.

خيرًا، من صلاةٍ أو زكاةٍ أو صدقةٍ أو إحسانٍ، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدًا، أو محلًا من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: (من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلةٍ وطريقٍ موصلٍ إلى ذلك[1]. انتهى كلامه.

وقال أيضًا في شرح قول رسول الله ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له)[2]: دار الدنيا جعلها الله دار عملٍ، يتزود منها العباد من الخير، أو الشر، للدار الأخرى، وهي دار الجزاء. وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار، ولم يتزودوا منها لآخرتهم ما يسعدهم، وحينئذٍ لا يمكن الاستدراك. ولا يتمكن العبد أن يزيد في حسناته مثقال ذرةٍ، ولا يمحو من سيئاته كذلك. وانقطع عمل العبد عنه إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله.

الأول: الصدقة الجارية، أي: المستمر نفعها، وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بمغلِّها، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها، أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها. فكلها أجرها جارٍ على العبد ما دام يُنتفع بشيءٍ منها. وهذا من أعظم فضائل الوقف. وخصوصًا الأوقاف التي فيها الإعانة على الأمور الدينية، كالعلم والجهاد، والتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.

الثاني: العلم الذي يُنتفع به من بعده، كالعلم الذي علمه الطلبة المستعدين للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفها في أصناف العلوم النافعة. وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة، أو كتابة، فإن أجره جارٍ عليه، فكم من علماء هُداة ماتوا من مئات السنين، وكتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم، وذلك فضل الله.

الثالث: الولد الصالح، ولد صلبٍ، أو ولد ابنٍ، أو بنتٍ، ذكرٍ أو أنثى، ينتفع والده بصلاحه ودعائه، فهو في كل وقت يدعو لوالديه بالمغفرة والرحمة، ورفع الدرجات، وحصول المثوبات. انتهى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

كلامه[1].

ومن جملة المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين جمعيات تحفيظ القرآن الكريم وجمعيات الدعوة إلى الله التي حصل بهما نفع كبير للمسلمين، وقد قال النبي ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[2]، وقال ﷺ: (والله لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

وكل من أعان على تعلم كتاب الله وتعليمه، والدعوة إلى الله تعالى له نصيب من هذه الخيرية بحسب إخلاصه وجهده ونصحه.

***ومن الأعمال المضاعفة:** العمل الذي إذا قام به العبد، شاركه فيه غيره، فهذا أيضًا يضاعف بحسب من شاركه.

وكم مِنْ عملٍ من الأعمال الصالحة يمكن للإنسان أن يشاركه فيه شخص أو أكثر من إخوانه المسلمين، كإنشاء موقعٍ علميٍّ أو دعويٍّ على الشبكة، أو التعاون على أبواب الخير أو إزالة المنكرات، أو مناصحة من يقصر في الصلاة، وغير ذلك. ويشهد لهذا عموم قول النبي ﷺ: (من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله).

***ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل؛** فهذا بلا ريبٍ يزيد أضعافًا مضاعفةً على عملٍ إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها، ولهذا فضّل الفقهاء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

وشاهد هذا حديثُ جريرٍ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مُجْتَابِي النِّمار أو العباء، فَتَمَعَّرَ وجه رسول الله ﷺ لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رقيبا} والآية التي في الحشر: {اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ} (تصدق رجل من دیناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره- حتى قال- ولو بِشِقِّ تمرةٍ) فجاء رجل من الأنصار بصُرَّةٍ كادت كَفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت

(١)بهجة قلوب الأبرار (ص١١٣).

(٢)أخرجه البخاري (٥٠٢٧) عن عثمان ﷺ.

كَوْمَين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: (من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[1].

وقال رسول الله ﷺ: (من دعا إلى هدًى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[2].

قال العلامة السعدي: هذا الحديث وما أشبهه فيه: الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغي، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

فكل من علّم علمًا أو وجَّه المتعلمين إلى سلوك طريقةٍ يحصل لهم فيها علم، فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من دعا إلى عملٍ صالحٍ يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة، فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من أبدى نصيحةً دينيةً أو دنيويةً يتوسل بها إلى الدين، فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من اهتدى في علمه أو عمله، فاقتدى به غيره، فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعملٍ خيري، أو مشروعٍ عام النفع، فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله، الداعي إلى الضلالة.

فالداعون إلى الهدى، هم أئمة المتقين، وخيار المؤمنين.

والداعون إلى الضلالة، هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى، فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان: فهو من الداعين إلى الضلالة[3].

وقال ابن القيم: عمل النفَّاع متعدٍّ إلى الغير، ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: (لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير

---

(١)أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢)أخرجه مسلم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣)بهجة قلوب الأبرار (ص٢٢).

لك من حمر النعم) وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه. والأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم(١).

وقال ابن رجبٍ: وفي الجملة: فخير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس، كما وصف الله المتقين بذلك في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(٢).

***ومن الأعمال المضاعفة** إذا كان العمل له وقْعٌ عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكةٍ، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين. فكم من عملٍ من هذا النوع يكون أكبر سببٍ لنجاة العبد من العقاب، وفَوْزِه بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أُزيل ما يضرها كان الأجر عظيمًا.

ومما يستدل به لهذا:

١.قولُه تعالى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}.

فيدخل في قوله: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} استنقاذ النفس من سائر أسبابِ الهلَكة بوجهٍ من الوجوه، قال الحسن: من أحياها من غرقٍ أو حرقٍ أو هلاكٍ(٣).

٢.وقولُه تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}

قال ابن جُزيّ: ومعنى الآية التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل الفتح، وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك؛ فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفًا، والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدةٍ أعظمُ أجرًا ممن أنفق في حال الرخاء(٤).

٣.وقولُ النبي ﷺ: (إن امرأةً بغيًّا رأت كلبًا في يومٍ حارٍّ يطيف ببئرٍ، قد أدلع لسانه من العطش،

---

(١)مدارج السالكين (١/ ١٠٨).

(٢)لطائف المعارف (ص٢٣١).

(٣)زاد المسير (١/ ٥٤٠) تفسير أبي السعود (٣/ ٣٠).

(٤)التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٤٤).

فنزعت له بِمُوقِهَا، فغفر لها)[١].

قال ابن القيم: «وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمأه، فكيف بمن سقى العِطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين؟!»[٢].

٤.وقولُ النبي ﷺ: (من نفس عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدنيا، نفَّس الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٣].

وهذا الحديث عظيمٌ جامعٌ لأنواع من العلوم والقواعد والفوائد والآداب، وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما يتيسر من علمٍ أو مالٍ أو معاونةٍ أو إشارةٍ بمصلحةٍ أو نصيحةٍ أو غير ذلك.

***ومن أسباب المضاعفة**: أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مُصِرّ على شيءٍ منها، فإن أعمال هذا مضاعفة؛ لقول النبي ﷺ: (إذا أحسن أحدكم إسلامَه فكل حسنةٍ يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعفٍ، وكل سيئةٍ يعملها تكتب له بمثلها)[٤].

قال ابن رجبٍ: إحسان الإسلام يفسر بمعنيين:

أحدهما: بإكماله واجتناب محرماته، ومنه الحديث المشهور المروي في السنن: (مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٥]، فكمال حسن إسلامه- حينئذٍ- بترك ما لا يعنيه وفعلِ ما يعنيه.

والمعنى الثاني: أن تقع طاعات المسلم على أكمل وجوهها وأتمها بحيث يستحضر العامل في حال عمله قُرب الله منه واطلاعه عليه فيعمل له على المراقبة والمشاهدة لربه بقلبه، وهذا هو الذي فسر النبي ﷺ به الإحسان في حديث سؤال جبريل عليه السلام[٦].

ولعل من أسرار مضاعفة ثواب من حسن إسلامه- خاصَّةً على المعنى الأول الذي ذكره ابن رجبٍ-: قلةُ ذنوب من حسن إسلامه، فإذا عمل الصالحات لم تجد ما يكدرها ويقلل ثوابها من الخطايا، بخلاف من لم يحسن إسلامه؛ فإن عمله الصالح قد لا يكافئ سيئاته. كحال من

---

(١)أخرجه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢)عدة الصابرين (ص٢٥٣).

(٣)أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤)أخرجه البخاري (٤٢) ومسلم (١٢٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥)أخرجه الترمذي (٢٣١٧) عن أبي هريرة ﷺ. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٦)فتح الباري (١/ ١٥٤و١٦١).

يكسب المال الكثير وليس عليه دين، فهذا يتضاعف ماله، بخلاف من عليه ديون فإن ما حصَّله من ربحٍ صرفه في سداد ديوانه.

وفي نحو هذا يقول النووي رحمه الله:... قد يقال: إذا كفر الوضوء الخطايا فماذا تكفر الصلاة؟ وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجُمعات؟ والجواب، أن كل واحدٍ من هذه المذكورات صالح للتكفير، فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفَّره، وإن لم يصادف صغيرةً ولا كبيرةً كُتبت به حسناتٌ ورفعتْ به درجاتٌ، وإن صادفت كبيرةً أو كبائر ولم يصادف صغيرةً رجونا أن يخفف من الكبائر(١).

***ومن أسباب المضاعفة:** رِفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام؛ فإن الله تعالى شكور حليم؛ لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرهن مضاعفًا، قال تعالى: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}.

وكذلك العالمُ الرباني، وهو العالم العامل المعلّم تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله.

كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب، كان أعظم من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

قال ابن رجبٍ: قد يضاعف الثواب بسبب شرف العامل عند الله وقربه منه وكثرة تقواه، كما يضاعف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم وأعطوا كفلين من الأجر، قال تعالى: {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} فمن عظمت منزلته ودرجته عند الله فإن عمله يضاعف له أجره(٢).

وقال أيضًا: قد تضاعف السيئات بشرف فاعلها، وقوة معرفته بالله، وقربه منه؛ فإن من عصى السلطان على بساطه أعظم جرمًا ممن عصاه على بُعدٍ؛ ولهذا توعد الله خاصة عباده على المعصية بمضاعفة الجزاء- وإن كان قد عصمهم منها- ليبين لهم فضله عليهم بعصمتهم من ذلك، كما قال تعالى: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} وقال تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}.

(١)شرح النووي على مسلم (٣/ ١١٣).

(٢)فتح الباري (١/ ١٦٢).

وقال ابن القيم: وقد دلَّت الشريعةُ وحكمُ الله على أنَّ من حُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثمَّ أسامَ نفسَه مع همَل الشهوات، فأرتَعَها في مراتع الهلَكات، وتجرَّأ على انتهاك الحرمات، واستخفَّ بالتَّبِعات والسيئات= أنه يقابلُ من الانتقام والعَتب بما لا يقابَلُ به من ليس في مرتبته، وعلى هذا جاء قولُه تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، ولهذا كان حدُّ الحُرِّ ضعفي حدِّ العبد في الزِّنا والقذف وشُرب الخمر؛ لكمال النعمة على الحُر(١).

*ومن الأعمال التي يضاعف ثوابها: الصدقةُ من الكسب الطيب، كما وردت بذلك النصوص.

كقوله تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}.

وقوله: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وقوله: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}.

وقوله: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}.

وقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

وقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}.

قال ابن القيم في تفسير هذه الآية: صدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في اللطف من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحدٌ يبذل هذا القرض الحسن فيجازَى عليه أضعافًا مضاعفةً؟

وسمَّى ذلك الإنفاق قرضًا؛ حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بدَّ= طوّعت له نفسه بذله، وسهُل عليه إخراجُه. فإن علم أن المستقرِض مليٌّ وفيٌّ محسنٌ= كان أبلغ في طِيب قلبه وسماحة نفسه. فإن علم أن المستقرض يتَّجر له بما أقرضه، وينمّيه له ويثمّره حتى يصير أضعاف ما بذله= كان بالقرض أسمحَ وأسمحَ. فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظٌّ عظيمٌ وعطاءٌ

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠٣).

كريمٌ، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفةٍ في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سبحانه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجةٍ، ولكن قرض إحسانٍ إلى المقرِض، واستدعاءً لمعاملته؛ ليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عمَّا يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم.

وحيث جاءَ هذا الإقراض في القرآن قيَّدهُ بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثةً:

أحدها أن يكون من طيِّب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبةً به نفسُه، ثابتةً عند بذله[١]، ابتغاءَ مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمنَّ به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفِق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ[٢].

وفي تفسير العلامة السعدي: قولُه: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} هي النفقة الطيبة التي تكون خالصةً لوجه الله، موافقةً لمرضاة الله، من مالٍ حلالٍ طيبٍ، طيبةً به نفسُه، وهذا من كرم الله تعالى حيث سماه قرضًا، والمالُ مالُه، والعبدُ عبدُه، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرةً، وهو الكريم الوهاب[٣].اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: (مَن تصدق بعدل تمرةٍ من كسب طيبٍ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فَلوَّه، حتى تكون مثل الجبل)[٤].

وجاء رجل بناقةٍ مخطومةٍ، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: (لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقةٍ كلها مخطومة)[٥].

ومن أسباب تضعيف أجر الصدقة أن فيها إنقاذًا للمسلمين، ونفعًا متعديًا للآخرين.

---

(١)لعله يشير لقوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...} قال في مدارج السالكين (١/ ٢٥٥): «... من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكورٍ، بل بثباتٍ من نفسه، وقوةٍ على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبُه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة...»

(٢)طريق الهجرتين (ص٣٦٣).

(٣)تيسير الكريم الرحمن (ص٨٣٩).

(٤)أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥)أخرجه مسلم (١٨٩٢) عن أبي مسعودٍ الأنصاري ﷺ. (مخطومة) أي: فيها خطام وهو قريب من الزمام.

***ومن أسباب مضاعفة الثواب:** شرفُ الزمان والمكان. وقد نص على هذا غير واحدٍ من أهل العلم:

قال ابن مفلحٍ: «وتضاعف الحسنة والسيئة بمكانٍ أو زمانٍ فاضلٍ، ذكره القاضي وغيره وشيخنا وابن الجوزي»[١].

وقال ابن رجبٍ: اعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسبابٍ، منها: شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل، كالحرم، ومنها: شرف الزمان، كشهر رمضان وعشر ذي الحجة[٢].

وفي غاية المنتهى وشرحه: «(وتضاعف الحسنة والسيئة بمكانٍ) فاضلٍ، كمكة والمدينة وبيت المقدس وفي المساجد، (وبزمانٍ فاضلٍ) كيوم الجمعة، والأشهر الحرم ورمضان. أما مضاعفة الحسنة؛ فهذا مما لا خلاف فيه...»[٣].

ومما يدل على المضاعفة في رمضان قولُ النبي ﷺ: (عمرة في رمضان تعدل حجةً)[٤]، وقولُ ابن عباسٍ: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[٥].

قال ابن رجبٍ: وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة، منها: شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه، وفي الترمذي عن أنسٍ، قيل يا رسول الله: أي الصدقة أفضل؟ قال: (صدقة في رمضان)[٦].

وأما مضاعفتها في عشر ذي الحجة، فلحديث ابن عباسٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: (ما العمل في أيامٍ أفضل منها في هذه؟) قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيءٍ)[٧].

---

(١)الفروع (٦/ ٣٠).

(٢)لطائف المعارف (ص١٥١).

(٣)مطالب أولي النهى (٢/ ٣٨٥).

(٤)أخرجه البخاري (١٨٦٣) ومسلم (١٢٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥)صحيح البخاري (٦) صحيح مسلم (٢٣٠٨).

(٦)لطائف المعارف (ص١٦٦) والحديث أخرجه الترمذي (٦٦٣) وقال: هذا حديث غريب، وصدقة بن موسى ليس عندهم بذاك القوي.

(٧)صحيح البخاري (٩٦٩) قال ابن حجرٍ في فتح الباري (٢/ ٤٥٩): والسياق الذي وقع في رواية كريمة شاذٌّ مخالف لما رواه أبو ذرٍّ وهو من الحفاظ عن الكشميهني شيخ كريمة بلفظ: (ما العمل في أيامٍ أفضل منها في هذا العشر) وكذا أخرجه أحمد وغيره عن غندر عن شعبة بالإسناد المذكور، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة، فقال: (في أيامٍ أفضل منه في عشر ذي الحجة) وكذا رواه الدارمي عن سعيد بن الربيع عن شعبة، ووقع في رواية وكيع المقدم ذكرها: (ما من أيامٍ العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، يعني أيام العشر) وكذا رواه بن ماجه من طريق أبي معاوية عن الأعمش، ورواه الترمذي من رواية أبي معاوية، فقال: (من هذه الأيام العشر) بدون يعني، وقد ظن بعض الناس أن قوله: (يعني أيام العشر) تفسير من بعض رواته لكن ما ذكرناه من رواية الطيالسي وغيره ظاهرٌ في أنه من نفس الخبر، وكذا وقع في رواية القاسم بن أبي أيوب بلفظ: (ما من عملٍ أزكى عند الله ولا أعظم أجرًا من خيرٍ يعمله في عشر الأضحى) وفي حديث جابرٍ في صحيحي أبي عوانة وابن

وساق الحديث ابنُ رجبٍ في فتح الباري بلفظ: (ما العمل في أيامٍ أفضل منها في هذه الأيام- يعني: أيام العشر-) قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيءٍ) وهو صريح في المراد.

ثم قال ابن رجبٍ: هكذا في أكثر النسخ المعتمدة... والحديث نصٌّ في أن العمل المفضول يصير فاضلًا إذا وقع في زمانٍ فاضلٍ، حتى يصير أفضل من غيره من الأعمال الفاضلة؛ لفضل زمانه، وفي أن العمل في عشر ذي الحجة أفضل من جميع الأعمال الفاضلة في غيره، ولا يستثنى من ذلك سوى أفضل أنواع الجهاد، وهو أن يخرج الرجل بنفسه وماله، ثم لا يرجع منهما بشيءٍ... ولهذا كان سعيد بن جبير- وهو راوي هذا الحديث، عن ابن عباسٍ- إذا دخل العشر اجتهد اجتهادًا حتى ما يكاد يُقدر عليه، وروي عنه، أنه قال: لا تطفئوا مصابيحكم في العشر[(١)].

ومن الأزمنة الفاضلة الأشهر الحُرم التي قال الله فيهن: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} قال ابن عباسٍ: «في كلهن. ثم خص من ذلك أربعة أشهرٍ فجعلهن حَرَمًا وعظَّم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم»[(٢)].

وأما شرفُ المكان كالمساجد الثلاثة، فلقول النبيِّ ﷺ: (لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى)[(٣)]، ولقوله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاةٍ في هذا)[(٤)].

قال بدر الدين الزركشي: إن التضعيف لا يختص بالصلاة بل وسائر أنواع الطاعات كذلك؛ قياسًا على ما ثبت في الصلاة، فأُلحق ما في معناه من أعمال البر، ثم أورد جملةً من الأحاديث والآثار، ثم قال: وإذا ثبتت المضاعفة بالسيئة بالنسبة إلى الزمان الفاضل، فالمكان كذلك[(٥)].

حبان: (ما من أيامٍ أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة) فظهر أن المراد بالأيام في حديث الباب أيام عشر ذي الحجة.

(١)فتح الباري (٩/ ١٠).

(٢)أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/ ٤٤٤).

(٣)أخرجه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤)أخرجه أحمد (١٦١١٧) عن عبد الله بن الزبيرﷺ، وصححه ابن حبان (١٦٢٠) وقال ابن القيم: إسناده صحيح، وقال ابن عبد الهادي: إسناده على شرط الصحيحين. زاد المعاد في (١/ ٤٩) المحرر (ص ٢٧٠).

(٥)إعلام الساجد بأحكام المساجد (ص ١٢٦).

*ومن أسباب المضاعفة: عبادة الله في الأوقات التي حث الشارع على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها، وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول ﷺ المكمِّل مع الإخلاص للأعمال، المنمِّي لثوابها عند الله.

أما الصلاة آخر الليل فقد قال رسول الله ﷺ: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[1]، وفي روايةٍ لمسلمٍ: (ثم يبسط يديه تبارك وتعالى، يقول: من يقرض غير عدومٍ، ولا ظلومٍ).

قال ابن بطالٍ: «هذا وقت شريف مرغَّب فيه خصّه الله تعالى بالتنزّل فيه، وتفضّل على عباده بإجابة من دعا فيه، وإعطاء من سأله؛ إذ هو وقت خلوةٍ وغفلةٍ واستغراقٍ في النوم واستلذاذٍ به. ومفارقةُ الدَّعَة واللذة صعب على العباد، لا سيما لأهل الرفاهية في زمن البرد، ولأهل التعب والنَّصَب في زمن قِصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه في غفران ذنوبه، وفَكاك رقبته من النار وسأله التوبة في هذا الوقت الشاق على خلوة نفسه بلذتها ومفارقة دعتها وسكنها، فذلك دليل على خلوص نيته وصحة رغبته فيما عند ربه، فضُمنت له الإجابة التي هي مقرونة بالإخلاص وصدق النية في الدعاء؛ إذ لا يقبل الله دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[2].

وقال ابن هبيرة: ينبغي للإنسان عند سماع هذا الحديث أن يكون شديد الحرص على اغتنام أوقات الإجابة. والألفاظُ التي ذكرها رسول الله ﷺ كلُّها متناهية في بيان اللطف، متجاوزة في الرفق حد قدر الآدميين، وذلك حثٌّ على العبادة والسؤال. وقوله: (من يقرض غير عديمٍ) في اقتراض الغني من الفقير والربِّ من العبد شأنٌ عجيبٌ، وذلك أن الله سبحانه ملَّك العبد ما في يده تمليكًا يملك به الإقراض. وقوله: (غير عديم) يعني: أنه لم يستقرض عن عدمٍ. وفي الإقراض سِرٌّ، وهو أنه يعود الخَلَف متحتِّمًا على كرمه. وقوله: (ولا ظلوم)، أي: لا يمطل بإخلافِ ما يقترضه من عبده؛ لأنه الغني، ولا يبخس عبدًا مثقال ذرةٍ[3].

وأما الصيام فهو من أعظم العبادات وأكثرها ثوابا وأعظمها أجرًا، كما قال النبي ﷺ: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، قال الله عز وجل: إلا الصوم،

(١)أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة ﷺ.
(٢)شرح صحيح البخاري (١٠/ ٨٩).
(٣)الإفصاح (٦/ ١٩٦).

فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، والذي نفس محمدٍ بيده، لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[1].

قال العلامة السعدي: ما أعظم هذا الحديث؛ فإنه ذكر الأعمال عمومًا، ثم الصيام وفضله وآدابه خصوصًا، وذكر فضله وخواصه، وثوابه العاجل والآجل، وبيان حِكمته، والمقصود منه... وأضاف الصيام إليه، وأنه الذي يجزي به بمحض فضله وكرمه، من غير مقابلةٍ للعمل بالتضعيف المذكور الذي تشترك فيه الأعمال، وهذا شيء لا يمكن التعبير عنه، بل يجازيهم بما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ.

وفي الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص، وأن الصائم لمَّا ترك محبوبات النفس التي طُبعت على محبتها، وتقديمها على غيرها، وأنها من الأمور الضرورية، فقدَّم الصائم عليها محبة ربه، فتركها لله في حالةٍ لا يطلع عليها إلا الله، وصارت محبته لله مقدمةٌ وقاهرةٌ لكل محبةٍ نفسيةٍ، وطلب رضاه وثوابُه مقدمًا على تحصيل الأغراض النفسية، فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بأجرٍ وجزاءٍ تكفَّل به الرحمن الرحيم الكريم المنان، الذي عمَّت مواهبه جميع الموجودات، وخص أولياءه منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، وقدَّر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمورٍ لا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال؟ فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟

وهنا يقف القلم، ويسيح قلب الصائم فرحًا وطربًا بعملٍ اختصه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[2]اهـ.

والصيام مندوب في كل أيام السَّنة عدا ما نُهي عن صيامه، كالعيدين وأيام التشريق، وإفراد يوم الجمعة، وإذا وقع الصوم في الأزمنة التي يندب صيامها، كشهر الله المحرم، وشهر شعبان، وتسع ذي الحجة، وستٍّ من شوالٍ، ويوم عرفة، وعاشوراء، والإثنين والخميس، والأيام البيض= كان الثواب والجزاء أعظم عند الله تعالى.

*ومن **أسباب المضاعفة**: القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية؛ فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر، كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفةً.

(١)أخرجه البخاري (٥٩٢٧) ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢)بهجة قلوب الأبرار (ص٨٣).

وأمثلة هذا كثيرة جدًا، ولكن هذا ضابطها.

ومن الأدلة على هذا أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ فقال ﷺ: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمُل البقاء) وفي روايةٍ: (وتأمُل الغنى)[١]، قال ابن بطالٍ: فيه: أن أعمال البر كلما صعُبت كان أجرها أعظم؛ لأن الصحيح الشحيح إذا خشى الفقر، وأمَّل الغنى صعبت عليه النفقة، وسوَّل له الشيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمن تصدق في هذه الحال، فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه[٢].

وقال ابن رجبٍ:... وأفضل الأعمال أشقُّها على النفوس، وسبب ذلك أن النفوس تتأسى بما تشاهد من أحوال أبناء الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعاتهم كثُر أهل الطاعة؛ لكثرة المقتدين بهم، فسهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسَّى بهم عموم الناس فيشق على نفوس المستيقظين طاعاتُهم؛ لقلة من يقتدون بهم فيها، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: (إن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم)[٣]، وقال: (بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء)[٤]، وقال ﷺ: (العبادة في الهرج كهجرة إليَّ)، وفي لفظٍ: (العبادة في الفتنة كالهجرة إليَّ)[٥]، وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتَّبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دينٍ، فيكون حالهم شبيهًا بحال الجاهلية، فإذا انفرد مِن بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربَّه ويتَّبع مراضيه ويجتنب مساخطه= كان بمنزلة من هاجر مِن بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمنًا به متبعًا لأوامره مجتنبًا لنواهيه[٦].اهـ.

ومما يدل على مضاعفة الثواب مع وجود المعارضات النفسية، قولُ رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟) قالوا بلى يا رسول الله قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط)[٧]، فإسباغ الوضوء فضله عظيم لكن فضله يعظم إذا كان إسباغه على المكاره، كالبردِ ونحوه، فهنا قيام بالعمل مع المعارض النفسي. وانتظار الصلاة بعد الصلاة فيه حبس للنفس ومغالبةٌ لها على الطاعة،

---

(١)أخرجه البخاري (١٤١٩) ومسلم (١٠٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢)شرح صحيح البخاري (٣/ ٤١٧).

(٣)أخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ.

(٤)أخرجه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥)اللفظ الأول أخرجه مسلم (٢٩٤٨) والثاني أخرجه أحمد (٢٠٣١١) عن معقل بن يسار ﷺ.

(٦)لطائف المعارف (ص١٣٢).

(٧)أخرجه مسلم (٢٥١) عن أبي هريرة ﷺ.

فلذا صار مرابطًا في سبيل الله، مخالفا لهوى نفسه، وذلك من أفضل أنواع الصبر والجهاد.

ولذلك أيضًا عظم شأن الصلاة والدعاء والاستغفار في ثلث الليل الأخير، وقد قال ربنا: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} قال السعدي: كلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر[1].اهـ.

***ومن أسباب المضاعفة**[2]، وله صلة بالسبب المتقدم: إحياء أزمان الغفلة بالعبادة، ويشهد لهذا المعنى عدة أحاديث، أورد ابن رجبٍ جملةً منها عند كلامه على حديث أسامة بن زيدٍ، أنه قال: يا رسول الله، لم أرك تصوم شهرًا من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: (ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم)[3].

قال ابن رجب: في قوله ﷺ: (يغفل الناس عنه) فيه دليل على استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وأن ذلك محبوبٌ لله عز وجل، كما كان طائفة من السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة، ويقولون: هي ساعة غفلةٍ، ولذلك فَضُل القيام في وسط الليل؛ لغفلة أكثر الناس فيه عن الذكر، وقد قال النبي ﷺ: (أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن)[4]، ولهذا المعنى كان النبي ﷺ يريد أن يؤخِّر العشاء إلى نصف الليل، وإنما علل ترك ذلك لخشية المشقة على الناس، ولما خرج على أصحابه وهم ينتظرونه لصلاة العشاء قال لهم: (ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم)[5]، وفي هذا إشارة إلى فضيلة التفرد بذكر الله في وقتٍ من الأوقات لا يوجد فيه ذاكرٌ له، ولهذا ورد في فضل الذكر في الأسواق ما ورد من الحديث المرفوع والآثار الموقوفة، حتى قال أبو صالحٍ: «إن الله ليضحك ممن يذكره في السوق» وسبب ذلك أنه ذكر في موطن الغفلة بين أهل الغفلة.

وفي حديث أبي ذرٍّ المرفوع: (ثلاثة يحبهم الله عز وجل: رجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم

---

(١)القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص١٣٢).

(٢)هذا السبب لم يذكره الشيخ ولا الشارح، واستفدته مما ذكره ابن رجبٍ في لطائف المعارف.

(٣)أخرجه النسائي (٢٣٥٧) وقال ابن مفلح في الفروع (٥/ ١٠١): إسناده جيد، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٧).

(٤)أخرجه الترمذي (٣٥٧٩) والنسائي (٥٧٢) عن عمرو بن عَبَسة ﷺ، قال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٥)أخرجه البخاري (٥٦٦) ومسلم (٦٣٨) عن عائشة رضي الله عنها.

يسألهم بقرابةٍ بينه وبينهم فمنعوه، فتخلفهم رجل بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلم بعطيته إلا الله عز وجل والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعدَلُ به نزلوا فوضعوا رؤوسهم فقام يتملقني ويتلو آياتي، ورجل كان في سريةٍ فلقوا العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له)[1]، فهؤلاء الثلاثة انفردوا عن رفقتهم بمعاملة الله سرًّا بينهم وبينه فأحبهم الله، فكذلك من يذكر الله في غفلة الناس أو من يصوم في أيام غفلة الناس عن الصيام.

وفي إحياء الوقت المغفولِ عنه بالطاعة فوائد:

منها: أنه يكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل.

ومنها: أنه أشق على النفوس، وأفضل الأعمال أشقُّها على النفوس.

ومنها: أن المنفرد بالطاعة بين أهل المعاصي والغفلة قد يُدفع به البلاء عن الناس كلِّهم، فكأنه يحميهم ويدافع عنهم، قال بعض السلف: ذاكر الله في الغافلين كمثل الذي يحمي الفئة المنهزمة، ولولا من يذكر الله في غفلة الناس لهلك الناس، وقد قيل في تأويل قوله تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} أنه يدخل فيها دَفعه عن العصاة بأهل الطاعة، وجاء في الأثر: أن الله يدفع بالرجل الصالح عن أهله وولده وذريته ومَن حوله[2].

*__ومن أهم ما يضاعف فيه العمل__: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل، فكلما كانت هذه الأمور أقوى، كان الثواب أكثر، ولهذا قال النبي ﷺ: (إن الرجل لينصرفُ، وما كُتب له إلا عُشرُ صلاتِه، تُسعُها ثُمُنُها، سُبْعُها سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثها، نصفُها)[3]، فالصلاة ونحوها وإن كانت تجزئ إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة، إلا أن كمال القبول، وكمال الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان بحسب حضور القلب في العبادة.

قال ابن رجب: وأما من أحسن عمله وأتقنه وعمله على الحضور والمراقبة، فلا ريب أنه يتضاعف بذلك أجره وثوابه في هذا العمل بخصوصه على من عمل ذلك العمل بعينه على وجه

---

(١)أخرجه الترمذي (٢٥٦٨) والنسائي (١٦١٥)) قال الترمذي: حديث صحيح. وصححه ابن خزيمة (٢٤٥٦) وابن حبان (٣٣٤٩) والحاكم (١٥٢٠).

(٢)لطائف المعارف (ص١٣٣).

(٣)أخرجه أبو داود (٧٩٦) عن عمار بن ياسر ﷺ، وصححه ابن حبان (١٨٨٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٥).

السهو والغفلة[1].

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون الإكثار منه؛ فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان، أفضل من الكثير مع الغفلة وعدم الإتقان. قال بعض السلف: إنَّ الرجلين ليقومان في الصف، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. ولهذا قال ابن عباسٍ وغيره: صلاة ركعتين في تفكرٍ، خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلبُ ساهٍ![2].

*ومن **أسباب مضاعفة العمل**: حصولُ أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقّة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل؛ فإن الأعمال كلما كملت، كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار.

*ومن **لطائف المضاعفة**: أن إسرار العمل قد يكون سببًا لمضاعفة الثواب؛ فإن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: (رجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) ومنهم: (رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه).

*كما أن **إعلانها قد يكون سببًا للمضاعفة**، كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيّره أفضل من غيره.

قال العلامة السعدي عند قوله تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}: في هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، أما إذا لم تؤتَ الصدقات الفقراءَ فمفهوم الآية أن السر ليس خيرًا من العلانية، فيُرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار[3]. وقد سلف حديث جرير، وفيه أن النبي ﷺ قال (من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء).

(١)فتح الباري لابن رجب (١/ ١٦٣).
(٢)مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٣٥٢).
(٣)تيسير الكريم الرحمن (ص ١١٦).

خاتمة

إن مما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين: أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللَّهَجِ بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكلّ فضيلةٍ وأجرٍ وثوابٍ، وغيرها من الأعمال تبعٌ لها؛ فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم.

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض هذه الأسباب، وأما ذكر الله، فلا شك في سبق أهله وفضيلتهم، بل قال ابن القيم: إن أفضل أهل كل عملٍ أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، فأفضل الصُّوام أكثرهم ذكرًا لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وأفضل الحجاج أكثرهم ذكرًا لله عز وجل. وهكذا سائر الأعمال.

وفي حديثٍ مرسلٍ: «أن النبي ﷺ سئل: أي أهل المسجد خير؟ قال: أكثرهم ذكرًا لله عز وجل قيل: أي الجنازة خير؟ قال: أكثرهم ذكرًا لله عز وجل قيل: فأي المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكرًا لله عز وجل قيل فأي الحجاج خير؟ قال: أكثرهم ذكرًا لله عز وجل قيل: وأي العُوَّاد خير؟ قال: أكثرهم ذكرًا لله عز وجل» قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كله[١].

وقال عُبيد بنُ عُميرٍ: إنْ أعظَمَكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم على المال أن تنفقوه، وجَبُنتُم عن العدو أن تقاتلوه= فأكثروا من ذكر الله عز وجل[٢].

وفي صحيح مسلمٍ أن رسول الله ﷺ كان يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبلٍ يُقال له: جُمْدان، فقال: (سيروا، هذا جُمْدان، سبق المُفرِّدون) قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: (الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغَل العبد به نفسَه في الجملة[٤].

بل من فوائد الذكر أنه من أعظم المعين على كل برٍّ وطاعةٍ؛ فعن عبد الله بن بُسْرٍ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أتشبَّث به، قال: (**لا يزال**

---

(١)أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٢٩) مرسلًا.

(٢)الوابل الصيب (ص٧٥).

(٣)أخرجه مسلم (٢٦٧٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤)مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٠) بتصرفٍ.

لسانك رطبًا من ذكر الله)[1]، قال ابن القيم معلقًا على هذا الحديث: فدل الناصح ﷺ هذا الرجل على شيءٍ يبعثه على شرائعِ الإسلام والحرصِ عليها والاستكثارِ منها؛ فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبَّه وأحبَّ ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام... وذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته؛ فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها له ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك... وذكر الله عز وجل يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، فما ذُكر الله عز وجل على صعبٍ إلا هان، ولا على عسيرٍ إلا تيسر، ولا مشقةٍ إلا خَفَّت، ولا شدةٍ إلا زالت، ولا كُربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم.

إلى أن قال رحمه الله: إن ذكر الله عز وجل يُذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، فإنه بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يحذرها أمانٌ له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كلِّه مخاوفٌ، ومَن له أدنى حِسٍّ قد جرب هذا وهذا، والله المستعان.

إلى أن قال: إن الذكر يعطي الذاكر قوةً، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يطيق فعله بدونه، وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيته، وكلامه، وإقدامه، وكتابته، أمراً عجيباً؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعةٍ أو أكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

وقد علَّم النبي ﷺ ابنتَه فاطمة وعليًّا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلةٍ إذا أخذوا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعاً وثلاثين؛ لما سألته الخادم وشَكتْ إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلَّمها ذلك، وقال: (إنه خير لكما من خادمٍ).

فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوةً في يومه مُغْنِيةً عن خادمٍ[2].اهـ.

ومما يدل على أن الله يُمد الذاكر بقوةٍ وتأييد منه قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي

(١)أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣) وصححه ابن حبان (٨١٤) والحاكم (١٨٢٢) وحسنه ابن حجرٍ في نتائج الأفكار (١/ ٩٣).

(٢)الوابل الصيب (ص٧٦).

الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وقال تعالى حكايةً عن هودٍ عليه السلام: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}.

وخلاصة ما تقدم من أسباب وأعمال:

الأول: تحقيق الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ.

الثاني: صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله وصفاته.

الثالث: قوة إرادة العبد، ورغبته في الخير.

الرابع: كون العمل من الأعمال التي نفعُها للإسلام والمسلمين له نفع كبير، كالجهاد، وسلوك طرق التعلّم والتعليم، والمشاريع الخيرية.

الخامس: العمل الذي إذا قام به العبد، شاركه فيه غيره.

السادس: من كان سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل.

السابع: إذا كان العمل له وقْعٌ عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكةٍ، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين.

الثامن: أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مُصِرّ على شيءٍ منها.

التاسع: رِفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام.

العاشر: الصدقةُ من الكسب الطيب.

الحادي عشر: شرفُ الزمان والمكان.

الثاني عشر: عبادة الله في الأوقات التي حث الشارع على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة.

الثالث عشر: القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية.

الرابع عشر: إحياء أزمان الغفلة بالعبادة.

الخامس عشر: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل.

السادس عشر: حصولُ أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقّة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل.

السابع عشر: إسرار العمل.

الثامن عشر: إعلانه إذا حصل فيه أسوة واقتداء.

وإلى هنا بفضل الله تم هذا الاختصار والتهذيب، في التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة، سنة إحدى وأربعين وأربع مئةٍ وألفٍ، والحمد لله رب العالمين.